

فهذه المرة رغم محاولات الطرفين السعودي والإماراتي لملمة الجدل والحديث المتواتر حول وجود تباعد بين السعوديين والإماراتيين، مثلما يحصل في كل مرة، إلا انه في هذه المرة بات من الصعب عليهما التكتم أو المناورة، أو الإيعاز إلى بعض الإعلاميين من المحسوبين عليهما، ليضلل بأن هناك مناورة أو تقسيم ادوار أو ما شابه ذلك، ذلك لأن النتيجة الحتمية لهذا التحالف هو التصادم والتفكك والانهييار، ليس لتضارب واختلاف أو حتى تصادم أجنداتهما في اليمن وفي ملفات أخرى وحسب، وإنما لأسباب بنيوية وتاريخية، شكلت أساسات راسخة حكمت العلاقة بين الطرفين، وظلت هذه العلاقة محكومة بهذه الأساسات، تعبر عن نفسها بين الحين والآخر، رغم التضليل والتظاهر بغير الحقيقة كما أشرنا قبل قليل، وحتى نفهم هذه المعادلة؟ ومن ثم نجيب على الأسئلة المطروحة من المحللين ومن المتابعين حول مستقبل هذا التحالف هل سيدوم أو سيكون مصيره إلى التفكك والانهييار، أو حتى الصدام العسكري؟ وحتى نفهم ونجيب على ذلك كله نعود إلى أساسات البنى الفكرية والتاريخية التي حكمت أو التي أقيمت عليها هذه الكيانات السعودية والإماراتية وغيرهما، وسنركز على هذين الأولين تحديداً..

المملكة السعودية.. من المفاهيم والمنظومات التي بُنيت عليها مسألة تأسيس المملكة وقامت عليها السياسة السعودية حتى يومنا هذا نذكر ما يلي:

1- مفهوم الأخ الأكبر، وهو مفهوم مأخوذ من الموروث القبلي والعادات العشائرية في تلك المنطقة بل وعموم المنطقة العربية، ويعني هذا المفهوم، أن الكلمة الفصل للأخ الأكبر في العائلة أو الأسرة، أما بقية الأخوة الصغار، فلا بد لهم من الطاعة لهذا الأخ الأكبر، وليس لهم حق الاعتراض حتى لو كان قراره خاطئاً! هذا المفهوم الذي يعتبر أساساً من أساسات التكوين الفكري والمفاهيمي للأسرة العربية في تلك المنطقة، تجسد في السياسة السعودية لآل سعود بعد تكوين كيانه ونشوءه بواسطة البريطانيين، وبواسطة الدعم الأمريكي فيما بعد، بعد انسحاب البريطانيين كقوة عظمى.. وعلى هذا الأساس ظل هذا المكنون الفكري جزءاً لا يتجزأ من البنية العقلية لآل سعود، فلا أحد من مكونات مجلس التعاون الخليجي يمكن ان يجاهر برأي مخالف للأخ الأكبر السعودي، حتى يعتبره الأخير متمرداً ولا بد من تأديبه والأمثلة كثيرة، ومنها الأزمة القطرية الحالية، ومنها الصدمات العسكرية السعودية التي تقع بين الحين الآخر مع الكويت أو مع الإمارات أو حتى مع قطر، صحيح أن هناك خلافات حدودية بين السعودية وجاراتها الخليجيات، تقصد المستعمر البريطاني زرعتها بين هذه الكيانات كألغام متفجرة، يفجرها في الوقت المناسب كلما أراد لخدمة مصالحه، إلا أن النظام السعودي استخدمها في الضغط على هذه الدول الصغيرة أو لتأديبها كلما خرجت عن الطاعة...

2- المفهوم الآخر الذي يحكم أو تستند إليه السياسة السعودية، هو أيضاً مأخوذ من الموروث القبلي في الجزيرة العربية، ويتمثل في أن القبيلة القوية تغير على ممتلكات وأراضي القبائل الصغيرة، وهذه قضية معروفة في العلاقات القبلية وفي التكوين الاجتماعي لمجتمع شبه الجزيرة العربية، وآل سعود أيضاً ترجموا هذا الموروث عند ما أسسوا وأقاموا كيانهم في بداية القرن المنصرم، وفي نهاية الذي سبقه، وإلى الآن يحكم هذا المفهوم عقلية آل سعود، فرغم مساحة كيانهم الكبيرة، إلا أن التوسع وقضم أراضي الكيانات ظلّ سياسة ثابتة في سياسات وعلاقات النظام السعودي مع جيرانه، ولهذا السبب، فإن النظام السعودي قضم من اليمن محافظات نجران وجيزان وعسير حيث تعادل مساحتها مساحة لبنان، وما يزال يطمح في اقتطاع أجزاء من المحافظات الشمالية من جهة صعدة، أو من المحافظات الجنوبية، من جهة المهرة وحضرموت! فيما اقتطع من الإمارات منطقة الشببة بحقولها النفطية، ويتنازع مع الكويت على ما يسمى المنطقة المحايدة، ومع قطر، وهكذا، فرغم أن الكيان السعودي أصبح دولة، وفيها حكومة، ولها حدود جغرافية، إلا أن النظام السعودي لم يغادر مبدأ التوسع على حساب الآخرين، فظل هذا المبدأ يحكم سياساته الآن، يعبر عنه كلما سنحت له الفرصة المناسبة.

3- وإلى جانب مبدأ الاستقواء في تكوين عقلية آل سعود وفي تركيب شخصيتهم، هناك مبدأ الاستعلاء أيضاً، حيث يتجسد هذا المبدأ في تفكير حتى الصغار والنساء من عائلة آل سعود وهذا ما عبر عنه صراحة طلال بن عبدالعزيز حيث قال إن المملكة عبارة عن شركة نحن آل سعود نشكل إدارة الشركة وعقلها والناس عبارة عن عمال يتقاضون الأجر فيها، أي هم يستحقون الحياة والوجود على أرض المملكة ماداموا يعملون مخلصين في شركة آل سعود، وطبيعي أن التفكير الذي يعتبر الشعب في داخل المملكة مجرد إجراء، كيف يعتبر الآخرين من خارج المملكة؟! بدون شك ينظر إليهم بدونية هي أكثر بكثير مما ينظر بها إلى شعب المملكة، ولو رجعنا إلى سياسات آل سعود مع جيرانهم من أمراء وملوك ((المقاطعات)) الخليجية نجد أن الازدراء والاحتقار السعوديين دائماً هو الحاكم لهذه السياسات تجاه هؤلاء!!

وعلى أساس هذه المفاهيم الموروثة والتي تجسدت في التكوين التاريخي والنشأة للكيان السعودي، صاغ النظام السعودي استراتيجيته الحديثة، والتي تركز إلى أسس عدة نشير إلى بعضها بما يلي:-

إن تظل المملكة السعودية قائدة الدول العربية الخليجية، وحدها التي تقرر مصيرها وبوصلتها، وهذا ما تجسد في مجلس التعاون الخليجي، فالنظام السعودي بل وحتى الراعيين الأمريكي والبريطاني لهذه الأنظمة، حينما أوعزا لهذه الأنظمة بتأسيس مجلس التعاون الخليجي، كانا قد وضعوا في حسابهما منح النظام السعودي ثقلاً ووزناً خليجياً وعمقاً جغرافياً وبالتالي إستراتيجياً، لمواجهة إيران الثورة الإسلامية، وهنا النظام السعودي

الذي انسجم هذا التوجه مع توجهاته وأفكاره جعل من المجلس طوقاً ومحدداً للأعضاء الآخرين في المجلس وعدم السماح لهم بالخروج عن الدائرة السعودية، أو معارضة سياسة النظام السعودي حتى وان أضرت هذه السياسة بمصالح هؤلاء الأعضاء.

2- أن يكون النظام السعودي رأس الحربة في الاستراتيجية الأمريكية، فلا بد أن يظل هو المرجع وهو الذي يقرر للآخرين من أعضاء المجلس الأدوار التي يقومون بها في إطار تلك الاستراتيجية، وقد تسبب هذا المبدأ في تنامي التملل بل والتمرد من جانب أعضاء المجلس على تلك السياسة ومنهم قطر، وحتى الإمارات نفسها، والكويت في بعض الأحيان، حيث أدت مثل هذه التمردات إلى حصول أزمات صامته أو علنية بين السعودية وهؤلاء الأعضاء أو بعضهم!

لأن المملكة تحتضن الحرمين الشريفين فلا بد أن ينظر لها باحترام وبأنها قائدة العالم الإسلامي((السنّي)) تحديداً، وظلت تؤكد على هذا المفهوم سيما بعد ما دفع بها الأمريكيون والبريطانيون إلى الواجهة كمثل للنموذج الإسلامي " المعتدل " بحسب التعبير الغربي، في مواجهة " النموذج الإسلامي الراديكالي" الذي تمثله إيران الثورة الإسلامية، وقوى المقاومة، بحسب التصنيف الأمريكي الغربي.. صحيح أن هذا المفهوم يعتبر جزءاً لا يتجزأ من منظومة المكونات الفكرية للنظام السعودي لإضفاء القدسية والشرعية على نفسه ولضمان بقائه وولاء الناس له، لكن النظام وظف التوجه الأمريكي البريطاني الآنف، للدفع به كبديل عن الإسلام الأصيل المقاوم، في دفع ليس أعضاء مجلس التعاون الخليجي وحسب، بل وكل البلدان الإسلامية ذات الأغلبية السنية للوقوف ورائه وتأييد سياساته التي كانت تتخذ باسم الدفاع عن الأمة لكنها في الحقيقة تلي مصالح النظام بالذات وأسياده الأميركيين والبريطانيين!. الإمارات: بالنسبة للإمارات، كما لبقية الإمارات الخليجية فأن الموروث القبلي والتاريخي أيضاً ساهم مساهمة فاعلة في كينونة الشخصية الإماراتية، وهنا المقصود بالذات، العائلة الحاكمة (آل نهيان)، وإذا أردنا أن نحدد بعض ملامح العقلية لدى آل نهيان، والتي صاغت السياسات والاستراتيجيات القديمة واللاحقة والحالية، يمكن أن نؤشر إلى ما يلي:

1- التظاهر بالتواضع والوئام مع الأخ الأكبر السعودي، إنما هو حالة طارئة ومؤقتة فرضها الضعف وقوة الآخر وسطوته في المنطقة الخليجية، وفرضتها سطوة المستعمر البريطاني ومن بعده وريثه الأمريكي، فهذه السطوة كانت تملّي على هؤلاء الصغار الانقياد والتسليم للنظام السعودي، بمقتضى المصلحة الاستعمارية.

2- و بناء على ما تقدم فإن المبدأ الأساسي عند آل نهيان، وبقية العائلات الخليجية الحاكمة، هو التطلع إلى الفرصة المناسبة للانعتاق من هذه السطوة السعودية القاتلة والتخلص من تبعاتها والاستقلال عنها، بل والعمل على إضعافها - ان سنحت الفرصة - هذا الأخ الكبير واسترجاع الحقوق المهضومة منه.

3- العمل على تقوية الذات ما أمكن، إما بالالتكاء على القوى الأخرى، أو ببناء القوتين العسكرية والاقتصادية، إيماناً من الحكام الإماراتيين أن ذلك من شأنه أن يوفر للأمارات خلق الفرص المناسبة للانعتاق من هيمنة السعودية والتخلص من سطوتها والى الأبد.

و بدون شك وكما أسلفنا وأشرنا أن ذلك لم يكن تفكيراً فرضه التكتيك أو حالة طارئة، إنما نؤكد مرة أخرى إنه ينطلق من الكينونة ومن التكوين الفكري والتاريخي لشخصية الحاكم الإماراتي، وبالتالي من السهل علينا تحليل التحالف الإماراتي السعودي الحالي، والتنبؤ بمستقبله وبالعوامل التي ستؤدي به إلى التفكك والانهييار، بل انه فعلاً يعيش هذه المرحلة، مرحلة التفكك والانهييار، وبدأت تظهر عليه ملامح الافتراق، لماذا؟

لأن الإمارات، في تحالفها مع السعودية أرادت تحقيق أمرين هما:

أولاً: الاستفادة من ثقل السعودية ومن الدعم الذي تحظى به والتأييد على مستوى المنطقتين العربية والإسلامية، لتحقيق ما لم تستطيعه لوحدها لأنها لا تتمتع بهذا الثقل على الصعيدين العربي والدولي، أي أن هذا التحالف ومن منطلق منظومة المفاهيم المشار إليها التي ساهمت في صياغة عقيلة الحاكم الإماراتي، الهدف منه جعل السعودية مظلة للوصول إلى الهدف!

و ثانياً: توظيف هذا التحالف، لانجاز محاولات إضعاف الطرف السعودي، بوضع المعول في جدار هذا الطرف، وبالتالي منعه أو عرقله محاولاته توظيف التحالف مع الإمارات من تحقيق الاستقواء وبالتالي تسهيل عملية تحقيق الأهداف التي يريد الوصول إليها، على العكس من ذلك تماماً كما أشرنا قبل قليل..

و اليوم تتجلى هذه الأبعاد بوضوح في كل الملفات المشتركة الخاصة بالمنطقة وبعض القضايا الساخنة وبغيرها، وتتضح الصورة أكثر بالإشارة إلى ما يلي:

1- الملف الداخلي... كل التحليلات، وكل المعطيات، أو أغلبها حول العلاقات السعودية الإماراتية، أشارت من قريب أو من بعيد، وحتى أحياناً بصورة مباشرة، إلى أن صداقة بن زايد مع بن سلمان لم تكن

ينفع السعودية بل على العكس أنها ضارة للسعودية، إذ جلبت لها الكثير من الخسائر الأخلاقية والمادية ونالت من سمعتها وثقلها في العالمين العربي والإسلامي، حتى أن أكثر من أمير سعودي معارض نشروا بيانات تندد بدور بن زايد في أضعاف السعودية، وفي العمل نحو تفكيكها، من خلال توظيف صداقته مع بن سلمان وتوجيه هذا الأخير، أو التأثير على سياساته ومواقفه بالشكل الذي يخدم المصالح الإماراتية بالدرجة الرئيسية! وللإشارة فأن عدداً من الكتاب البارزين في الصحف والمواقع الالكترونية البريطانية مثل ديفيد هيرست، قالوا إن بن سلمان إذا ظل مطية بن زايد فأن المصير الذي سينتظر السعودية سيكون التفكك والانهار، وأشاروا إلى أن عمليات الزج بالأمرء في سجن ريتز كارلتون والسيطرة على ممتلكات بعضهم وتعذيب البعض الآخر حتى وفاته كان من تخطيط بن زايد واملاءات الأخير على بن سلمان! ذلك أن بن زايد يرى في ضعف المملكة وانهارها فرصة للتوسع على حسابها، باسترجاع مناطق الشبة ومخزونات النفطية، فضلاً عن انتزاع الإمارات الريادة والقيادة للمنطقة العربية في الخليج، لأن بن زايد يدرك جيداً أن بقاء السعودية قوية متماسكة، يعيق تحقيق طموحاته المشار إليها. وعلى هذا الأساس يرى البعض من المراقبين، أن دفع بن زايد بن سلمان لتوتير علاقات السعودية، مع قطر، ومع الكويت في عدد من المقاطع الزمنية ومع عمان، محاولة لتحجيم الدور السعودي وتحجيم قيادتها للدول الخليجية ومحاولة دفع الأطراف المشار إليها إلى التمرد، والحصيلة بروز دور إماراتي يقرر مصير تلك المنطقة، وهو ما تجلى واضحاً في تفاصيل وتداعيات الأزمة القطرية، وفي ملفات أخرى.

2- الملف الإيراني، فبينما اتخذ النظام السعودي الموقف المعادي والمحرض على إيران والمتوعد بنقل المعركة السعودية مع إيران إلى الداخل الإيراني، اتخذ النظام الإماراتي موقفاً ملتبساً ومتناقضاً في الظاهر، فهو إعلامياً وسياسياً يقف مع النظام السعودي ويشجعه على تلك السياسة الخاطئة، بينما هو في الواقع يعزز أواصره التجارية والاقتصادية مع إيران ويتودد إليها سياسياً سراً! ما أضعف ذلك الموقف السعودي وقلل من تأثيره وآثاره، بل وساهم في عزلة النظام السعودي، بعكس النظام الإماراتي الذي بدى أكثر حنكة من نظيره السعودي، في التمتع بمرونة سياسية جنبته الكثير من الانعكاسات السلبية، التي تركت بصماتها على الحليف السعودي، ونحن هنا لا ندافع عن أي من الموقفين فكلاهما خاطئ، إنما نقارن لمجرد التوضيح والإشارة إلى اختلاف الأجندات الإماراتية عن تلك السعودية.

3- الملف اليمني، وفي الحقيقة يتجلى الصراع الإماراتي مع السعودية بأوضح صوره في الملف اليمني، ولقد انبرى وزراء حكومة ما يسمى ((بالشرعية)) مراراً وتكراراً باتهام الإمارات بأنها تريد تحقيق أهدافها في السيطرة على الموانئ وعلى الممرات وعلى الثروات اليمنية في الجنوب على حساب حليفها السعودية وعلى حساب مصالح اليمنيين، في الجنوب خاصة! وقد كتب الكثير حول هذا الأمر، وفسرت كل المعارك والصدامات العسكرية الدامية بين مرتزقة الإمارات ومرتزقة السعودية اليمنيين في إطار

هذا الصراع، ومنها ما حصل مؤخراً من انفجارات في عدن كما أشرنا في بداية الحديث!

4- ملف التطبيع.. كتب الكثير من الكتاب المحللين، ومنهم من الصهاينة، أن النظام الإماراتي يسعى من هرولته نحو التطبيع إلى الاستقواء، وإلى قيادة المنطقة، كما كتب الصهاينة عن أن الإمارات لديها أجنداث خاصة بها تتعارض وحتى تتصادم مع الأجنداث السعودية في كل ملفات المنطقة ومنها الملف اليمني، هذا فضلاً عما كتب ويكتب عن الأهداف الإماراتية من وراء التطبيع مع العدو والتمايز عن النظام السعودي في هذا الملف.

كل ذلك يؤشر إلى أن هذا الحلف الإماراتي السعودي، سيكون مصيره التفكك والانهيال ولعل بن سلمان بدأ يدرك أن الانقياد وراء بن زايد سوف يؤدي إلى نتائج كارثية أو هكذا يقولون!

عبد العزيز المكي